

في نور محمد فاطمة الزهراء

بأيّتهما هو أشدّ شجناً وألماً، وأيّتهما هي عليه أثقل وأفدح. لا غرو، بل لا يعسر أن يقال: ربّما أحسّت الزهراء أنّ ثمّة أيضاً في وسط الشمعة ذبالة [595] ثالثة أخرى، تزيدها احتراقاً على احتراق، وتضيف إلى قدرتها على الانصهار قدرةً تعدو بها، وتقفز قفزاً إلى مشارف النهاية. أَوَ ما كانت تدرك أنّ أباه قد أصبح - من همّيه هذين - كمن لا يطعم غير الحنظل، ولا يشرب غير الصاب، ولا يتنفّس ملء رئتيه غير لفح اللهب؟ أَوَ ما كانت ترى كيف تضاعفت عليه آلامه، وتحالفت عوادي أيامه، بعد أن غاص [596] من واحة حياته ينبوع الحبّ والحنان، وتقلّصت الأفياء [597] والظلال؟ بل إنّ هذا لمحتوم، وليس بموهوم، فالثرى غيّب عنه قرينة نفسه، رفيقة أنسه، شريكة فرجه وشجنه، ملاذ سرّه وعلمه، المملية له - حين اليأس - في الرجاء أحلى الرجاء، الفادية له - حين اليأس - بالفداء أغلى الفداء. أو ما كانت الزهراء تدري كيف هان أبوها على رؤوس الشرك من سادة قومه، بعد أن مات أبو طالب، وعدم موته الظهير والنصير، فإذا قريش كلّها عليه إلّاب [598]، تكيد له كيد حسد، وتغري به إغراء حقد، حتّى صار مطمعاً سهلاً لسفاهة الحمقى الأرذال، ومرتعاً مستباحاً لسفالة الطّعّام الجُهلّال، كأزّه مُتنفس سهام يتبارى في التسديد إليه وإصابته رمي الرّمانة؟ بلى! قد كانت. بلطف الحسّ كانت تدرك، وبرفّ العين كانت ترى، وبرهف السمع كانت تدري هذا وغيره ألمّ بأبيها، ثم لا تكاد تحاجز دونه إلاّ بصمت المحسور. * * *